جاي يا غلمان ..!

النازلة التي حلّت بالزوجين، فقصمت ظهر «أبو زهرة» وأشابت رأس أم زهرة، عاصفة بحي تل العيد، مفجعة جميع سكانه، بلغت أصداؤها، بالطبع مجمل حارات صفورية أيضاً. والحق أن الصفافرة، خارج تل العيد، حُزنُهم على ما جلب الرجل وزوجته على نفسيهما، كان شديداً بالفعل. أما حكاية تبنّي الزوجين لـ «عنزة» واعتبارهما وليدها السّخل حفيداً لهما، ثم إقامة الزوجين، ومعهما أهالي تل العيد العزاء، للحفيد السَّخل، الذي لم يولد إلا في الوهم، ولم يمت إلا في الكوابيس، فقد أضافها الصفافرة إلى خارج طرائف أصحاب تل العيد، وإلى وسيع بيدرهم من النوادر والأعاجيب!.

فالناس في عديد أحياء صفورية وفي مختلف حاراتها، مقتنعون بأن التل عيديين مفقسة بِدَع، ومزرعة غَرائب، كما أنهم على ثقة بأن أهل تل العيد، أساساً، يختلفون عنهم في كل شيء تَقريباً! وهم يروون عن هذا الحي حكايا مثيرة، وينسبون إلى سكانه، من الأفعال والوقائع، ومن الأحاديث والنكات، ما يَعْرِض أصحاب تل العيد معارض غريبة، و يضعهم على سُبُل أنكرها السابقون من صفورية، ولا يألَفها المعاصرون فيها، ومما يزعمه الصفافرة، عن حي تل العيد الذي تقطعه الطريق الموصلة إلى حارة «الزعارير»، وتعتبر منه بوابة المسجد الكبير الغربية، أن أهله يأكلون نباتات اللّوف نيئاً، وأنهم يصطادون القنافذ واليرابيع، ويفضلون لحم الأنوق على لحوم الخراف والجديان، وأن النساء والأطفال لديهم لا يخشون القارضات، ولا يخافون الزواحف، وأن الرجل في تل العيد، ليدخل يده في الشِق من شقوق الحيات، أو الجحر من جحور الأفاعي، فيستخرج بها منه الثعبان والثعبانين، بمثل السهولة واليُسر اللذين يخرج بهما سبحته من جيبه!.

أما عجائز تل العيد، فالإجماع مستوفى على أنهن ينطقن عن الغيب، وأنهن يخاطبن الأرواح والجنيّات!.

إلا أن الصفافرة يكادون يتفقون على أن أهل تل العيد صنوهم بدناً وروحاً في حبهم للملوخية، وفي أسلوبهم في فرمها، وفي ذوقهم في إعدادها وطبخها وتقديمها.. كما أن الصفافرة، خصوصاً

المعمّرين منهم يُقرُّون أحياناً أن الشباب من تل العيد، أشباهَهم في حميتهم وبأسهم وشجاعتهم، عند التصدي للفيضانات، تجتاح هذه الناحية أو تلك من صفورية، أيام الشتاء، وأنهم أصْنَاءُ بقية الصفافرة في إقدامهم على اطفاء الحرائق، التي طالما هبّت في المحاصيل على البيادر إبان الصيف!.

مع ذلك فقد كان الظن الشائع أنه لولا أسّر العادة، وقيود الحرص على الرفق بالجيرة والجيران، ولولا الماء والنار، ولولا الملوخية ـ وليس إقامة سكان تلِ العيد على ثرى صفورية طوال مئات السنين ـ لما ارتضت صفورية تل العيد كحيّ من أحيائها، ولما عايش الصفافرة أبناء تل العيد، ولا جاوروهم ولا صاهروهم، ولما شاركوهم في فرح أو ترح، ولا زاملوهم، لا في مرعى، ولا على عين ماء!.

على أن حُزن الصفافرة خارج تل العيد حين بلغهم نبأ مصيبة الزوجين، كان شديداً بالفعل، وإن كانت حكاية العنزة والتبني والعزاء، لم تنزل لهم من زور!.

|

حيرة الصفافرة، خلا أهل تل العيد بالطبع، في تفسير محنة تل العيد الجديدة، كانت واضحة، فقد عجزوا عن «تصنيف» هذه المأساة، فهي ليست شائعة لا أساس لها ولا أركان، كما أنها ليست حكاية نائية، وفدت عليهم بعد أن زيد فيها وأنقص منها. ثم هي ليست أسطورة، فأبو زهرة وأم زهرة حيان يرزقان موجودان، وما حدث لهما ملء السمع والبصر، وكثيرون منهم الذين يعرفون أن الزوج نودي «أبو زهرة» منذ أن كان صبياً، وأن زوجته أُلحقت بكنية زوجها بعد أن حُملت إليه، وأن للزوجين كانت أمنية عزيزة على قلبيهما، قضيا عقدين من حياتهما الزوجية ينتظران تحقيقها، هي: أن يمنّ، جلّت قدرته عليهما بطفلة يطلقان عليها الاسم «زهرة». هذه الأمنية مع الأيام، امتزجت بوجدان الزوجين حتى أمست همهما الأول، وهاجس وجودهما الوحيد، الذي لا يفارقهما في يقظة، ولا يتخلى عنهما في منام.

إلا أن الذي لا رادّ لأمره، ولا ثالم لقضائه لم يقدّر لهذين الزوجين أن يكونا أباً وأماً، لا لطفلة، ولا حتى لهرة!.

لكن الذي لا ينسى من فضله أحداً، ألهم بعد أذان عصر يوم ماطر، قريباً للزوجين، أن يهديهما «سخْلة» أمات الصقيع أمها العنزة بعد أن ولدتها بدقائق.

الزوجان أقبلا على الهدية، بحماس وإشفاق، وفيما كانت أم زهرة تغمر بأنفاسها الدافئة عجين جسد السخلة المقرور، وحرير قوائمها المرتجفة، اندفع أبو زهرة خارجاً يركض على حم بطنه ليجلب الحليب، وما إن أحضره، حتى أدناه بإنائه النحاسي الصغير من بضع جمرات بحجم حبات البلوط الصغيرات، لولا دثار الرماد الوثير عليها، لقفزت لِغَلَبةِ البرد خارج كانونها الطيني الصغير. وبعد أن عمَد الرجل إلى قطعة قماش نظيفة، ففتل طرَفها بعناية، صانعاً منها ما يضارع حلمه ضرع العنزة.. إنقضّت أم زهرة على «الفتلة» لاهفة القلب، حرّى الأنامل، فأمسكتها برفق لا يجاريه إلا رفق الأم تمسك بقارورة دواء وليدها ابن العقدين من الانتظار، غطّست أم زهرة الفتلة في السائل الأبيض العجيب.. ورفعتها مرنّخة، وما إن ادنتها من الفم

الجائع، حتى تلفقتها السخلة ماصّة حليبها الدافئ.

غلالة بشْر أظلّت الثلاثة: أبو زهرة صفق فرحاً، وأم زهرة، لولا التي في حِجْرها لطارت، والسخلة رقّصت نسغ ذنبتها، دلالة رضا وإشارة حبور. أعادت أم زهرة التغطيس، والسخلة عاودت الامتصاص، حتى اكتفت وأغمضت عينيها، مُستسسلمة لاغفاءتها الأولى خارج أمها.

الدنيا في الخارج كانت قايمة قاعدة، بمطر رعْدي يطبق على الحقول والحواكير والأسطح، والريح كانت تجوب الفضاء والحارات، مصحوبة ببرق خاطف يلتمعُ من شقوق الباب على الثلاثة، والبرد سيد الشتاء لا يرْحم! أما الداخل في الداخل، فقد كان سعادة غامرة، وسكينة مُزهرة، تبسط جناح الرحمة على الأسرة وعلى البيت وحيطانه: الرجل وزوجته دافئان دفئاً لم يعهداه في زواجهما طوال العشرين سنة الماضية، والسخلة الغافية بينهما، لم تنعم، على مدى العشرين ربع ساعة المتقضية من عمرها، بمثل هذا الدفء، وهذا الرّي، وهذا الشِبَع!

الزوجان في فجر اليوم التالي، قبل التصبيح بالخير، وقبل التغطيس بالحليب، إتكلا على الله، قرآ الفاتحة، وأطلقا الاسم «زهرة» على السخلة، وتلك كانت باكورة حيرة الصفافرة، جميع الصفافرة، في أمر محنة الزوجين، ما عدا أهل تل العيد، بالطبع!.

|

السخلة «زهرة» ملأت بيت الزوجين حركة ومرحاً وحيويّةً، وبعد بضعة أيام «الفتائل» أَحْسَنت زهرة لعق الحليب من إنائه بيُسْر، ثم بدأت تقمقم القش والأعشاب الجافة، إلى أن انتهت بعد بلوغها الشهر إلى التهام كل ما طاب لها من حشائش وتبن وأعلاف. رُفع عنها الحليب في هذه المرحلة، وغدت مُنسجمة تماماً مع اسمها. فما أن يقال: زهرة تعالي، حتى تعرف أنها المقصودة بالنداء، فتهرول مسرعة بجذل، لتأكل من يد أحد الزوجين، الكلأ، أو نفايات البقول.

أخذت زهرة تتعرف على المكان، وتطوف أرجاءه، تذرع مصطبة البيت، وتتسلق كل ناتئ عليها، صعدت على قبعة العلف وعلى صرر المونة والبرغل والعدس والزعتر، اعتلت صندوق الثياب الخشبي، وعنه قفزت جامعة يديها إلى رجليها، نحو جرة الزيت، لتستقر على سدادتها الخشبية، التي لا تزيد مساحتها عن مساحة كف يد أم زهرة. خرجت إلى الساحة، جابت نواحيها، وطافت كل ركن منها، ووصلت إلى البئر واستوقفتها الطاقة في أصل خرزته، وهي الطاقة التي تعبر منها إلى البئر مياه الساحة والسطح في مواسم المطر. لكنها توقفت بعيداً عن تلك الطاقة خطوة من خطواتها، للحظة، مادة إليها، بحذر شديد، عنقها ورأسها، تتشمم زواياها، وتتفحص كنهها، ثم تراجعت عنها، ولم تدن منها قط بعد ذلك. ثم شرعت زهرة بالتعرف على البيئة المحيطة بالبيت: فرّت الطرقات والأزقة، واستعرضت البوابات والمداخل والسناسل. سكان تل العيد، الجار القريب، والمعرفة البعيدة أخذوا يألفونها، ثم اعتادوا مشاهدتها في الأصباح، ذاهبة إلى الحشائش البرية في حاكورة الشيخ سليمان المهجورة. وفي الضحايا، شاقهم انتظار عودتها سالمة. زهرةأيضاً، أدْمنت، فيما يبدو، تصفّح الوجوه ورؤية الناس على الشبابيك والأبواب والطرقات سواء على طريق خروجها في الصباح، أو على درب عودتها إلى البيت، بعد أن تستوفي حظها من نديّ الكلأ. وبعد أن تتعب ويدركها العطش، وتحضرها رغبتها في القيلولة.

وحين تعبر زهرة البوابة عائدة، تسير بضع خطوات على أرض الساحة، لتقف بجانب البئر، متجنبة الدنو من الطاقة، حيث ينتظرها أبو زهرة، فارغ الصبر، بدلو الماء البارد الذي نشله لها من البئر. فترِدُهُ زهرة، هاجمة عليه مشوقة به، وتصدر عنه رياً، ثم تسير زهرة داخلة إلى البيت لتربضَ على المصطبة، بمحاذاة أم زهرة، التي لا تسعها الدنيا فرحاً بزهرة، وعودة زهرة، وشرب زهرة، وخلود زهرة في قيلولتها إلى الراحة:

ـ أبو زهرة.. بترجاك وطّي صوتك شوي.

خلي زهرة، تقيّل مليح، وتغفالها شوية.

ـ أمرك.. أمرك أم زهرة، وأمر زهرة، أمرك يا ست الستات، وأمر عيون زهرة إل مثل زهرات بابونجات سطوح تل العيد!.

ـ مالك أبو زهرة مش عادتك؟!.

ـ فرحان! أنا اليوم فرحان بزهرة وبأم زهرة. ولاّ حرام أفرح، يا أم زهرة؟!.

ـ عال.. عال، بس وطّي صوتك! خلي زهرة تقيّل وتنام لها شوية.

مع الأيام طورت زهرة عادة الخروج، أحياناً، في الصباح الباكر، والزوجان بعد نائمين.

وياما توجهت أم زهرة إلى الجيران، بعد أن تستيقظ ولا تجد زهرة:

ـ آه.. شفتها. تجيبها أم العبد، كانت رايحة عالحواكير، ولا إشي، بعد شوي ميعادها تيجي، ولا إشي اتكلي ع الله، يا أم زهرة.

ـ لكن أنا قلقانه عليها يا أم العبد، طلعت اليوم قبل ما تفطر يا ضناي!

بعد أن بلغت زهرة شهرها الخامس، وابتعدت عن عهد السخولة، وأصبحت تبدو عنزة حقيقية: شعرها الأسود الطويل لامع ومُسَبْسبْ، قرناها يجملان رأسها، وعيناها واسعتان جميلتان. ولاحظت أم زهرة على زهرة جملة تغيّرات، منها أنها تطيل الثغاء، دون سبب ظاهر، وأنها لم تعد تبهرها مياه الدلو، بل أصبحت تشرب بهدوء ودعة، وكأنها تستغرق في نظرها إلى خيال وجهها في الماء! ومنها أيضاً أنها لجأت إلى التبكير أكثر، في خروجها من البيت.

وذهبت زهرة إلى آخر الشوط، فغادرت البيت مرة، قبل الفجر بما يقرب الساعة، ومع أذان الفجر استيقظت أم زهرة لتجد زهرة طالعة من نص الليل. خرجت المرأة ساقطة القلب زائغة العينين. باب جارتها ما زال مُغلقاً، فسارت نحو بوابة المسجد الغربية، وجدت المؤذن، وقد هبط لتوه عن آخر درجات أذان الفجر:

ـ نعم يا أم زهرة، رأيتها. لقد انضمت قبيل الفجر إلى قطيع علي مصيلح، من الأعْنُز وفحول الماعز والأسخال، المار من وسط تل العيد، إلى مراعيه في مواقع «ذيل العشْ».

وطمأنها الشيخ:

ـ لا شيء يمنع زهرة من العودة مع القطيع في المساء، إتكلي على الله.

كانت طيور ما بعد الفجر ظاهرة للعيان، على أغصان الأشجار وفي الفضاء، لكن أم زهرة كانت في أوبتها إلى البيت، لا تكاد ترى مواطئ أقدامها على الطريق من فداحة الانفعال.

أم العبد الآن في باحة بيتها:

ـ يا أم زهرة، صباح خير إن شاء الله، زهرة أكيد، يا بتيجي مع القطيع، يا بتيجي قبله، طولي روحك.

لم تجد أم زهرة زوجها في البيت، لقد خرج يبحث عن زهرة، طاف كروم زيتون تل العيد، وحواكيره، وعمائر عنبه ولوزه وتينه، نظر في دخاريق الصبر ومرَّ بالكثير من بساتين صفورية. دخل المغاور واستقصى حفرَ النحّاتة، ودخل أنفاق التراب الأصفر، وهو وإن كان يبدو أوفى صبراً، في ظاهره من زوجتَه، إلاَ أن قلبه في داخله كان يُعصر كليمونة، وحين عاد إلى البيت، وجد أم زهرة تتقلى على ما هو أبلغ تحريقاً من الجمر، ووجدها أيضاً تنتظره باستفسارات انكارية، لا تريد سماع أجوبة عليها:

ـ ليش يا أبو زهرة ما صلَّحت البوابة. ليش ما حطيت سُكرة ومفتاح لباب بيتنا، منشان تدفعو براسها زهرة، وتطلع هيك؟ جنزرها كان يا صالح، اربطها، ليش ما كسرت اجرها وقعدتها يا ابن خديجة!؟ أنت أبو البيت.. هيك تخلي زهرة شَدْها على بَدْها يا عمري يا أبو زهرة؟!

وأجهشت أم زهرة بالبكاء، كأنها أيضاً، تعتذر له على لومها إياه. دنا أبو زهرة من زوجته، شفتاه ترتجفان، والخدر ينتاب أنامل يده اليسرى. كان يتشظى، كحبة جوز تتشقق تحت ضربة المدلاك. تشبث بفلول جَأشه:

ـ صلي على النبي يا أم زهرة، كِنّكْ فيها جاي. سلمي أمرنا إلى اللّه.

أخيراً عادت زهرة، عادت بعد صلاة العصر. مرهقة، شعرها منفوش، يغطيه الغبار الملزوج بالعرق. تتخلله الأشواك والشوائب، عيناها حمراوان ذابلتان، والذباب يزفها ويلاحقها. الزوجان صعقتهما المفاجأة السارة. أبو زهرة دنا من أم زهرة وأسرَّ لها كلمات. ما إن سمعتها أم زهرة، حتى انتفضت واقفة. شكلت عن ساعديها، ومثلها فعل أبو زهرة. وأقبلا على زهرة المستسلمة، يصلحان لها شأنها، غسلا شعرها، وأزالا ما علق به، وبعد الحمام والتنظيف والتفلاية، أم زهرة سحبتها من أذنها إلى الداخل، وقدمت لها اليوم زيادة في عليقها من الشعير المرضوض والكرسنة المسمودة، قرأت على رأسها وهي تأكل «قل هو الله أحد» ورجت من أعماق روحها سيدي سعد الدين أن يُسهم في جعل العواقب سليمة.

لقد سُعد الناس في تل العيد، بمشاهدة زهرة على طريق رجوعها إلى البيت، والنسوة منهم يُوشوشن مسرورات بعودة العروس زهرة، من مشوارها مع فحول علي مصيلح!.

نام الزوجان هذه الليلة مبكرين، على قلق واضطراب، وما أن انطوى من الليل أقلُّه، حتى استيقظ أبو زهرة على صوت صرخات، تطلقها أم زهرة وهي نائمة. أم زهرة في نومها الموتور كانت ممددة على ظهرها مغمضة العينين، مستسلمة لرحى حلم أسعدها أوله، كما روت. فقد رأت أن زهرة ولدت سخلاً جميلاً مثلها تماماً، لكن صوتها على الرغم من أنها كانت تبتسم، كان مشحوناً بلهفة خائفة، ولظى جمرها الترقب، وشررها القلق. أبو زهرة أدرك أن أم زهرة تحلم، وهو لم ير أبداً على شفتي زوجته سروراً مرعباً مثل هذا السرور القاتل.

الرجل مشدوهاً سأسأ بأنصاف كلمات «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأم زهرة تحولت بسرعة البرق إلى نهاية كابوسها الرهيب: السرور فرّ عن شفتيها، جحظت عيناها، وصرخت:

ـ لا .. لا.
باطل.. غرق ابن زهرة!
وانتفضت مستيقظة.
ـ مالك يا أم زهرة، بسم الله..
أم زهرة اندفعت خارجة إلى طاقة البئر التي غيبت، في حلمها ابن زهرة، وأخذت تصرخ:
ـ جاي يا غلْمان جاي!.
أوتار الليل المشدودة نشرت جاي يا غلمان، ورددت: جاي.. جاي. أدخل أبو زهرة زوجته إلى داخل البيت، كوَّمت نفسها على الأرض مبهورة الأنفاس ممتقعة اللون.
بعد جهد فهم منها أبو زهرة وأم العبد وزوج أم العبد اللذان كانا أول الفازعين، أنها رأت في منامها، أن السخل الجميل الذي ولدته زهرة على شاكلتها، وقف على أرجله بعد ولادته بلحظات، وسار صوب طاقة البئر، وأمه تُلَحّسهُ، وتجهد في منعه من الوصول إليها، لكن السخل العنيد أصرّ.. ودخل الطاقة، سقط في البئر، غرق في مائه، ومات!

|

فيما كان الليل يسترد آخر أرديته، تقاطر في الخارج، رجال حي تل العيد، ونساؤه وعجائزه، على طريق البيت الثاكل! الشيوخ أوهنها الأسى، والشابات من النساء يمشين مثقلات بما يحملنه على رؤوسهن إلى بيت العزاء، قُبع، مغمقانات، وأكياس وطناجر، تحوي كميات متفاوتة من صنوف مختلفة: برغل، طحين، عدس، زيت زيتون، رُب خروب. أما العجائز فقد جررن أقدامهن جراً، متأبطات صُرراً، أو معلقنها في أيديهن مضمومة الصُرة منها، إما على كمشتين زبيب، أو مشكاك قطين، وإما على حفنة سمسم، أو فرمة تبغ، وحين يصل المعزّون إلى بيت الزوجين الثاكلين، ويعبرون البوابة الخارجية، ذات الخوخة المخلوعة، يتخذ الرجال مجالسهم على حُصر مُدّت على أديم باحة البيت. الكآبة تظل الوجوه والأصوات:
ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله الفقيد!.
ـ الله يصبرك يا أبو زهرة.
ـ ما أغلى من الكبير.. إلا الصغير!
أبو زهرة لا ينبس، ظهره مسنود إلى الحائط، فخذاه في جلسته متباعدتان، ساقاه ممدودتان لا تلتقيان، وقدماه العاريتان بشحوب قدمي تمثال جيري باهت. وهو لا ينظر إلى الجالسين ولا يستقبل ببصره قادماً، ولا يرسله خلف مغادر، مرسلاً من مقلتيه المقرّحتين نظرة واحدة طويلة مخضلة، تسيل كتيار مائي رقيق ينحدر ببطء باتجاه طاقة البئر التي غيبت في الحلم، «حفيده».
أما النساء، فبعد أن يدلفن إلى البيت الذي داخله، لا يطاله هواء، ولا تغادره رطوبة.. يضعن ما جلبنه جانباً، ويحطن نائحات مولولات، بأم زهرة، المسجاة جاحظة العينين، معقودة اللسان منفوشة الشعر، ساكنة الأطراف، على طُراحة، أقصر من قامتها بما يفوق الشبر، تتوسط مصطبة التراب المربوص.

وبينما كان العرق الساخن كزجاجة القنديل، يتفصّد من جبين أم زهرة، ووجنتيها وأبطن يديها ورجليها.. ارتفع نحيب النسوة الشابات، وجلجل زعيق العجائز الطاعنات، يحرضن «جدة الفقيد» على إعطاء العزاء حقه!.

ـ صابري؟ قومي إمعَدي يا مشحرَة.

الله يكون بعونك وعون أبو زهرة.

والله لو قتلت حالك يا أم زهرة ما حدا لامك!.

كل ذلك، وزهرة رابضة على بعد خطوات من المعزّين تجتر بهدوء ودَعَة، وترمق الجميع، بين الحين والحين، بنظرات وديعات صافيات، تخلو تماماً من أي معنى، وأظهر ما يبدو عليها أنها لا تعي مما يدور حولها قط شيئاً!.

طه محمد علي
الناصرة